هُويَّة الذَّات وانعكاس امتدادات عمق الانتماء في النص الشعري عند شعراء العصر العباسي الأول (أبو تمَّام وبشار بن برد أنموذجاً)

Self-identity and the reflection of the extensions of the depth of belonging in the poetic text Among the poets of the first Abbasid era (Abu Tammam and Bashar bin Burd as a model)

م.د.أحمد سعيد محمد

Dr. Ahmed Saeed Mohamed

كلية الامام الاعظم الجامعة

ملخص

ممَّا هو مألوف، أنَّ العصر العبَّاسي ضمَّ مزيجاً متنوعاً من الشعراء، ينحدرون من أصولٍ مختلفة، وينتمون لدياناتٍ عدة، ولقومياتٍ متناقضة، يحملون أفكاراً ومعتقداتٍ متباينة إن لم تكن متنافرة، كلُّ ما مضى لا بدَّ أن يظهر في النصِّ، أو في أقلِّ تقدير تظهر ملامحُه مهما حاول مبدع النص إخفاءها، تمثل بمثابة هويته القابعة في أعماقه وذهنه، وتعكس مديات انتماءاته الذاتية التي يحملها، ولاسيما الدينية والقومية والفكرية، بل وتظهر ملامح الانتماء السياسي والاجتماعي والتاريخي، ومن هنا انبثقت فكرة هذا البحث، وكان الرأي هو الرجوع إلى شاعرين مختلفين في كلِّ ما مضى ذكره، متقاربين في الزمن، فصار الرأي أن يكون أبو تمام وبشار بن برد قطبَي هذه المعادلة، وربما من المناسب جداً أن أذكر أني في مرحلة استقصائي البحثي في هذا الموضوع لم أجد أية دراسةٍ في هذا الموضوع في العصر العباسي الأول، سوى بحث بعنوان (شعر دعبل بين توهج العاطفة وعمق الانتماء) للدكتور(ستار عبد الله جاسم)، الذي وجدناه بعيداً كل البعد عن دراستنا هذه في مساحتها ومحتواها، ووجدت بعض الدراسات المقاربة في عصورٍ أخرى، ومنها: كتاب (الانتماء في الشعر الجاهلي) للدكتور (فاروق أحمد اسليم)، وبحث بعنوان(الشاعر الجاهلي بين البحث عن الهوية والهوية البديلة) للدكتورة(إخلاص محمد عيدان)، كما لا أدعي أني قد استوفيت كل ما لا يمكن أن يُستَدرَك عليه في البحث والدراسة، ولكن حسبي أني لم أدَّخر جهداً في البحث والتقصي لدراساتٍ مشابهة أو مقاربة من حيث محتوى الدراسة وعصرها، وربما تكون هذه الدراسة مفتاحاً لدراساتٍ أخرى تكون أعمق وأشمل وأنفع.

وفي مرحلة استقرائنا في ديوانَي الشاعرين أبي تمَّام وبشار بن بُرد، وجدنا أنواعاً من الهُوِيَّة والانتماء تمثل جذور الشاعر وعمقه التاريخي وامتداداته التي ينتمي لها، فوجدنا أن الانتماء الديني والقومي والسياسي والاجتماعي والمكاني أهم ما يمثل هذا الجانب، فقامت دراستنا على هذه المرتكزات.

كلمات مفتاحية: هُويَّة، انتماء، أبو تمَّام، بشار بن برد

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

Abstract

It is familiar, that the Abbasid era included a diverse mix of poets, of different origins, belonging to several religions, and contradictory nationalities, carrying different if not discordant ideas and beliefs, all of the past must appear in the text, or at least show its features No matter how the creator of the text tried to hide it, it represented his identity residing in his depths and mind, and reflected the ranges of his self-affiliations that he carried, especially religious, national and intellectual, and even showed the features of political, social and historical affiliation, and from here the idea of this research emerged, and the opinion was to refer to two different poets in each What was previously mentioned, the opinion became that Abu Tammam and Bashar bin Burd are the two poles of this equation, and perhaps it is very appropriate to mention that in the stage of my research investigation on this subject, I did not find any study on this subject in the first Abbasid era, except for a research entitled (Dabal Bayn Poetry). The glow of passion and the depth of belonging) by Dr. (Star Abdullah Jassim), which we found far from our study in its scope and content, and I found some similar studies in other eras, including: The book (Belonging to Pre-Islamic Poetry) by Dr. Farouk Ahmed Asel Yum), and a research entitled (The Pre-Islamic Poet between the Search for Identity and the Alternative Identity) by Dr. Or an approach in terms of the content and time of the study, as this study may be a key to other studies that are deeper, more comprehensive and beneficial.

In the stage of our extrapolation into the two collections of poets Abi Tammam and Bashar bin Burd, we found types of identity and belonging that represent the poet's roots, historical depth and extensions to which he belongs.

Keywords: identity, affiliation, Abu Tammam, Bashar bin Burd

أهم كلمات العنوان في ميزان اللغة والاصطلاح:

الهُوِيَّة(بضم الهاء) لغةً: يبدو أنَّ الكلمة يشوبها شيءٌ من الغموض، فلم نجد لها تعريفاً في معجمات اللغة، لكن مما وجدناه مناسباً ومقارباً لها هو لفظ الهَوِيَّة(بفتح الهاء)، إذ ورد في قاموس المحيط: بئرٌ هويَّة: أي البعيدة القعر[١].

الهُوِيَّة اصطلاحاً: (الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق)[٢]، واللفظ متأتٍّ من لفظ (الهُو) الذي عرَّفه الجرجاني بأنَّه (الغيب الذي لا يصح شهوده للغير كغيب الهُوِيَّة المعبَّر عنه كُنْهاً باللاتعيُّن وهو أبطن البواطن)[٣]، وممَّا ورد فيها أنَّها عبارة عن التشخُّص وقد تطلق على الوجود الخارجي وقد تطلق على الماهية مع التشخُّص وهي الحقيقة الجزئية، ولفظ الهُوِيَّة مأخوذ من لفظ(هُو) الذي هو للإشارة إلى الغائب[٤]، ومن التعريفات الحديثة الأكثر مقبولية هي وصفها بأنها (مجموعة من السمات الثقافية التي تتصف بها جماعة من الناس في فترة زمنية معينة، والتي تولِّد الإحساس لدي الأفراد بالانتماء لشعب معين، والارتباط بوطن معين، والتعبير عن مشاعر الاعتزاز، والفخر بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد[٥])، نلحظ أنَّ ثمة توافقاً وتقارباً بين المعنى اللغوي للفظ الهَوِيَّة والتعريف الاصطلاحي للفظ(الهُوية)، إذا كلاهما يلتقيان عند نقطة واحدة أو تكاد، وهي معنى العمق والبُعد، وبهذا فإنَّ هُوِيَّة الإنسان تمثل عمقه التاريخي وامتداداته

(١) ينظر: القاموس المحيط: الفيروزآبادي: مادة (هوا): ١٣٤٧.
(٢) التعريفات: الجرجاني: ٢١٦.
(٣) التعريفات: الجرجاني: ٢١٦.
(٤) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي: ١٧٤٥-١٧٤٦.
(٥) مفهوم العولمة وعلاقته بالهوية: إسماعيل الفقي: ٢٠٥.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

السابقة عبر أزمنة بعيدة في المفاهيم كلها التي تحيط به ومن جوانب الحياة كافة.

الانتماء لغةً: ورد في لسان العرب في معنى انتمى: أي بمعنى انتسب، وفلان ينمي إلى حسب وينتمي: أي يرتفع إليه، وكلُّ ارتفاعٍ انتماءٌ[1].

الانتماء اصطلاحاً: هو (وجودٌ ماديٌّ ينعكس لدى الإنسان فكراً وشعوراً وسلوكاً؛ لأن الإنسان يملك تأريخاً، لا يستطيع الانفلات منه، وهذا التاريخ هو الوجود المادي المحقق للانتماء)[2].

الشاعران في ميزان السيرة:

هما شاعران مشهوران، أشهر من أنْ يُعرِّف بهما باحث، لكننا سنعرِّج عليهما بنظرةٍ عاجلة، فأبو تمام هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، ولد في أطراف دمشق نحو سنة (١٩٠ه)، كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه، له مؤلفات كثيرة، ويحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، توفي (رحمه الله تعالى) بالموصل نحو سنة(٢٣١ه)[3].

أمَّا بشار فهو بشار بن برد بن يرجوخ، فارسي مجوسي أصله من طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة، ولد على الرق، أعمى، وهو في أول مرتبة المحدَثين من الشعراء المجيدين فيه، كان يفضِّل النار على الأرض، ويصوّب رأي إبليس في امتناعه من السجود، قُتل على الزندقة سنة (١٦٨ه) ودفن في البصرة[4].

أولاً: الهوية الدينية والانتماء القومي

مهما حاول الشاعر أن يخفي هُويَّته الدينية والعقائدية وامتداداته القومية والعرقية لابدَّ أن تطرأ ملامحُها في النص

(١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور: ج١٥/٣٤٢ (مادة نمي).
(٢) الانتماء في الشعر الجاهلي: د.فاروق أحمد اسليم: ١٢.
(٣) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان: مج٢/ ١١ وما بعدها.
(٤) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان: مج١/ ٢٧١ وما بعدها.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الشعري، وتكون همساتُها مبثوثة فيه، فالشاعر يعي جيداً أنَّ ثمة علاقة وثيقة تقوم بينه وبين جذوره الدينية والقومية، تنعكس على رؤيته التركيبية في الحياة ومن ثمَّ في النص الشعري، وتنسجم مع النزعة الفكرية التي يحملها والقابعة في ذاته، ومع امتداداته ودلالات هذا الامتداد وجدلياته، وهي بذلك علاقة تلازمية تمنح الشاعر أحياناً شعوراً بالتمايز على وفق هذه الانتماءات، فأبو تمَّام يشعر بالزهو وينتشي بهُويَّته الإسلامية وانتمائه لأمة العرب حين يخاطب الخليفة المعتصم بالله[1] ويذكر وقعة عمورية، إذ يقول[2]:(البسيط)

أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإسلامِ في صعَدٍ
والمشركين ودارَ الشِّرك فـي صَبَبِ
أُمٌّ لهم لو رَجَوا أن تُفْتَدى جعلوا
فـــداءَها كـــلَّ أُمٍّ منهُمُ وأبِ
وَبَرْزَةُ الوجهِ قد أعْيَتْ رياضَتُها
كسرى، وصَدَّتْ صدُوداً عن أبي كَرِبِ

وهو بين الانتشاء والانتماء يُعرِّج على المقايسة بما آلَ إليه الإسلام وما حققه العرب إزاء قلعة عصية على أعتا جيوش العالم آنذاك، إذ أعيت كسرى وأتباعه فظنُّوا أنها مانعتهم حصونهم، حتى جاءها الخليفة المعتصم بالله بجيوشه الجرارة فأباد جموعهم وفتحها بعدما كانوا ينظرون لها أنها الأُم التي تجمعهم وتضمهم كما تضمُّ الأمُّ ولدها، وقد كانت هُويَّة الشاعر حاضرة، وانتماؤه صادحاً في النص، إذ نجد أبيات القصيدة عنده ملأى بالإشارات الإسلامية والإيماءات القومية والحوادث التاريخية، موظِّفاً كلَّ ما يمتلكه من موروثٍ من أجل التعبير عن قضيته التي ملأت عليه كيانه،

(١) المعتصم بالله: أبو إسحاق، محمد بن الرشيد، ولد سنة (١٨٠ه)، كان ذا شجاعة وقوة وهمَّة، بويع بالخلافة سنة (٢١٨ه)، غزا الروم وقتل منهم ثلاثين ألفاً وسبى مثلهم، وفتح عمورية، توفي سنة (٢٢٧ه). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢٦٤-٢٦٦.

(٢) ديوان أبي تمَّام: ج١/٤٧.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وحملتها نفسُه، فالأدب في إحدى تعريفاته أنه(تصوير لخبايا النفس ولواعجها)[1]، وبناءً على هذا التعريف، نجد أنَّ بعض الشعراء غير المسلمين وغير العرب مهما حاولوا الاندماج في المجتمع العبَّاسي والانتساب إلى الإسلام، فإنهم لم يبخلوا عند فرصةٍ مواتية أن يُظهروا هُويَّتهم الدينية والبوح علناً أو ضمناً بانتماءاتهم القومية؛ لأنَّ (الخروج من دائرة انتماءٍ ما، لا يعني استبدال انتماءٍ جديد بآخر قديم، بل يعني إضافة انتماء إلى آخر في عمليةٍ جدلية تنتج انتماءً متطوراً)[2]، والشاعر بشار بن بُرد خير مَن أفصح عن ذلك، إذ لم يدَّخر جهداً في الحنين إلى هُويَّته الدينية(المجوسية) وانتماءاته القومية(الفارسية)، إذ يقول[3]:(مجزوء الرجز)

جَدِّي الذي أسمو بـهِ
كسرى، وساسانُ أبي
وقيصرٌ خالـــي إذا
عددتُ يومـاً نسبي
كم لي وكم لي من أبٍ
بتاجِـــهِ مُعْتَصِبِ

فهو قد أبان عن هُويَّته الحقيقية التي طالما حاول إخفاءها، وطالما حملها في نفسه وتغنَّت بها جوارحُه كلُّها قبل لسانه، وقد عرَّج ابن طباطبا على مثل هذه الحال عند الشاعر، إذ بيَّن أن الأشعار لا تخلو من أن يُقتصَّ فيها أشياءٌ هي قائمة في النفوس والعقول، فيظهر بذلك ما كان يكمن في الضمائر، ويثار ما كان دفيناً، ويبرز ما كان مكنوناً، فينكشف للفهم غطاؤه[4]، ثمَّ أنَّ بشاراً يؤصِّل لفارسيته ومجوسيته ويفصح عن عمق هذه المفاهيم ومدى تمسكه بها، فهي متأصِّلة فيه لا يكاد أن

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري: طه أحمد إبراهيم: ٧٢.
(٢) الانتماء في الشعر الجاهلي: د.فاروق أحمد اسليم: ١٠.
(٣) ديوان بشار بن بُرد: ج١/ ٣٨٩.
(٤) ينظر: عيار الشعر: ابن طباطبا: ١٢٥.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

ينفكَّ عنها، وهي كينونته وصيرورته الفكرية والعقائدية، وممَّا قاله في ذلك[١]: (مجزوء الرجز)

أنا ابنُ فَرْعَي فـارسٍ
عنها المُحامي العَصِبِ
نحن ذوو التِّيجان والـ
ـمُلْكِ الأشـمِّ الأغلبِ

نلحظ أن بشاراً قد أوغل في ذكر امتداد جذوره، عاكساً هُويَّة ذاته (دينياً وقومياً) التي ذابت في المجتمع، محاولاً استذكار ما مضى واندثر على أيدي العرب والمسلمين، فهو يكرس عمق انتمائه في نصه الشعري، فهو إزاء ظاهرة يصعب الانفصال عنها بل يكون مُحالاً ذلك مهما حاول إخفاءها والتعمية عليها، وإنَّنا لا نريد أن نتوقف عند الموقف الأدبي فحسب، وإنَّما نبتغي تجاوز ذلك إلى الموقف الفكري والعقائدي، هذا الموقف (الفكري والعقائدي) أثَّر على منهج النص وقوامه، ومضمونه وشكله، إذ ما بخل بشار بن برد في أن يوقد ناراً للفتنة وبات يغذِّيها بقصائده، بل ويحاول استفزاز العرب والمسلمين مفصحاً عن مواطن زندقته وشعوبيته، قائلاً[٢]:(مجزوء الرجز)

ولا حدا قطُّ أبي
خلفَ بعيرٍ جربِ
ولا أتـى حنظلةً
يثقُبُها من سَغَبِ

فهو يهاجم العرب والمسلمين بكل ما أوتي من سلاح، ويبدو أن عبوديته التي ورثها من أبيه كانت إحدى أسباب سخطه على العرب والمسلمين، فضلاً عن الأسباب الأخرى كالعمى والهيئة وغيرها، إذ يذكر صاحب الأغاني أنه كان (ضخماً، عظيم الخلق والوجه، مجدوراً، طويلاً، جاحظ المقلتين، قد تغشَّاهما لحمٌ أحمرٌ، فكان أقبحَ الناس

(١) ديوان بشار بن بُرد: ج١/ ٣٩١.

(٢) ديوان بشار بن برد: ج١/ ٣٩٠.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

عمًى، وأفظعه منظراً)[1]، وفي الضفة الأخرى نجد أبا تمَّام قد تمخضت في نفسه أرومة العرب وصُهرت فيها نُصرة الإسلام ورجاله، والوقوف بوجه أعداء الأمة، إذ يقول[2]:(البسيط)

إنْ كان بين صُرُوفِ الدَّهْرِ من رَحِمٍ
موصولةٍ، أو ذِمَامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ
فبين أيَّامِكَ اللاَّتـي نُصِرْتَ بهـا
وبين أيَّـامِ بَـدْرٍ أقـربُ النَّسَبِ
أبْقَتْ بني الأصفر المِمْرَاضِ كاسْمِهِم
صُفْرَ الوجوه، وجَلَّتْ أوْجُهَ العَرَبِ

فقد جسَّد عمق انتمائه إلى الإسلام والعرب بربطه بين انتصار الجيوش العباسية وانتصار المسلمين في معركة بدر، وجعل النسب والمصاهرة بين الأيَّام رابطاً لهذا الانتماء، مثلما ينتسب الممدوح (الخليفة المعتصم بالله) إلى العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، ثم يربط الشاعر بين اسم الروم (بني الأصفر) وبين حالهم بعد انتهاء المعركة، إذا كانوا صُفر الوجوه من مرضٍ ومن خوفٍ وهزيمة، فكانت صفاتهم مماثلة لاسمهم، أمَّا وجوه العرب فقد عظُمت في هذه المعركة كما عظُمت في المعارك السابقة كبدرٍ وغيرها، وقد عبَّر أبو تمَّام عن عمق العلاقة التلازمية بينه وبين انتمائه وهُويَّته، هذه العلاقة التي تتضمن إطاره الفكري وتحمل خلاصة فلسفته في الحياة.

إنَّ وصولنا إلى أفكار الشاعر وفلسفته ورؤاه عبر نصوصه الشعرية ما هي إلا انعكاس لهُويَّته ومدى تجذرها في ذاته، وصورة لأبعاد انتماءاته ومدى تأصُّلها في أعماقه، وهذا ما يتضح عبر الخطابات الشعرية والإسقاطات الفكرية والنفسية التي تتموضع في مفاصل النص، وتشكل بمثابة محطات الشاعر لرسم معالم هُويَّته وانتماءاته، وأبو تمَّام لا يغفل عن رسم معالم هذه الهُويَّة حتى في مواطن الفراق وذكر الحبيبة المفارِقة، إذ يتوكَّأ على

(١) الأغاني: الأصفهاني: ج٣/٩٩.
(٢) ديوان أبي تمَّام: ج١/٧٣.

المفاهيم التي عرفها العرب والتي شدَّد عليها القرآن الكريم، قائلاً[١]:(الطويل)

وَلَمَّا دَعاني البَينُ وَلَّيتُ إِذ دَعا
وَلَمَّا دَعاهـــا طاوَعَتهُ وَلَبَّتِ
فَلَم أَرَ مِثلي كـــانَ أَوفى بِذِمَّةٍ
وَلا مِثلَها لَم تَرْعَ عَهدي وَذِمَّتي

يبدو أن الشاعر لم ينسَ هُويَّته الإسلامية في أدق المواقف وأحزنها وأوفاها وأجلِّها عتاباً، فهو يستحضر قوله تعالى:﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾[٢]، إذ حاول تأصيل التجربة الشعرية عبر تكثيف دلالات الألفاظ والمعاني الإسلامية، وبما أنَّ النص الشعري يرتبط بصاحبه وبالمجتمع والبيئة، فإنَّ موقف أبي تمَّام هنا قد مثَّل أنصع أنماط الانتماء الذي يعبر عن فلسفته الخاصة ويمثله في الحياة، عبر لوحةٍ حواريةٍ يكون الشاعر فيها المدعي والقاضي في الوقت نفسه.

إننا نحاول جاهدين أن تتسم أحكامنا بالموضوعية والمهنية والعلمية، لكننا في الوقت نفسه، لا نستطيع تجاهل معطيات النص بما ينسجم وروحية الشاعر وانتماءاته، التي مهما حاول تغطيتها والتمويه عنها فإنَّها تتضح في بطون القصائد، تخفي وراءها نزوعاته الحقيقية وهُويَّته الممزوجة في عروقه، فالشاعر بشار بن برد مهما حاول أن يستشهد بمعاني القرآن الكريم وألفاظه ودلالاته[٣]، أو حاول أن يمدح خليفةً ويذكر مآثره ومناقبه[٤]، نجد أنفسنا غير مطمئنين لهذا الاستشهاد وتلك المدائح، ولاسيما أن بشاراً لم يدع فرصةً إلا وانقضَّ فيها على الأمة (بقطبيها: المسلمين والعرب)، مخطِّئاً لآيات القرآن الكريم تارة[٥]، ومهاجماً العرب تارة، ومفحشاً في أعراض المسلمين تارة

(١) ديوان أبي تمَّام: ج١/ ٣٠٠.
(٢) سورة الإسراء: من الآية/ ٣٤.
(٣) ينظر مثلاً: ديوان بشار بن برد: ج١/ ٣٧٠، وغيرها.
(٤) ينظر مثلاً: ديوان بشار بن برد: ج١/ ٢٩٦، ج١/ ٣١٢، ج١/ ٣٤٠، وغيرها.
(٥) ينظر مثلاً: ديوان بشار بن برد: ج٤/ ٧٨.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

أخرى، بل لا يتوانى في قذف قبائل العرب والحط من مكانتها[1]، فضلاً عن قذف نساء العرب والمسلمين، يقول مفتخراً بفارسيته ومجوسيته ومتهجِّماً على العرب[2]:(الوافر)

أَعَاذلَ لا أنامُ على اقتِسارِ
ولا أُلقى على مَوْلَى وجارِ
سأُخبرُ فاخِرَ الأعرابِ عنِّي
وعنه حينَ بــارَزَ للفخارِ
أنا ابنُ الأكرمينَ أباً وأمَّاً
تَنَازَعَني المَرَازِبُ من طُخَارِ
... ...
أَحِينَ لبسْتَ بعد العُري خَزَّاً
ونادَمــتَ الكِرامَ على العُقارِ
... ...
تُفاخِرُ يا بْنَ راعيــةٍ وراعٍ
بني الأحرارِ حسْبُكَ من خَسَارِ

يبدو أنَّ العلل النفسية (الرق والعبودية)، والعلل الجسدية (العمى وغيرها)، والعلل العقائدية (الشعوبية والزندقة) وفساد معتقده، فضلاً عن غيرها جعلت الشاعر ما يفتأ ينفث سمومه ويصب جام غضبه على العرب، محاولاً التغافل عمَّا يشوبه والتمظهر بالكبرياء والشعور بالتفوق على بني البشر، وما ذاك إلا انعكاسٌ لمعتقدٍ، وآثارُ الهُويَّة القابعة في أعماقه، وتجسيدٌ لامتداد انتمائه الذي عهده من آبائه وأجداده، وارتداد لصوت الكُرْه الذي هيمن على قلبه، حتى بلغت الحال به أنه ـ كما نقل الجاحظ ـ جعل جميع المسلمين والأمة كفَّاراً[3]، ويبدو أن هذه هي ظاهرة باطنية تسكن جوف بشار فتُشكِّل أفكاره ورؤاه وسلوكياته في الحياة, تُدلِّل على جوهره وترسم روابط الصلة بينه وبين عمق امتداده وحاضره، وهذا ما لم يتوانَ في ذكره في كل مرة، بل كاد أن يكون في قصائد كثيرةٍ جداً يعجُّ بها ديوانه، ومن ذلك قوله في هجاء أمة

(١) ينظر مثلاً: ديوان بشار بن برد: ج٣/٨٦.
(٢) ديوان بشار بن برد: ج٣/٢٢٩ وما بعدها.
(٣) ينظر: البيان والتبيين: الجاحظ: ج١/١٦، ٢٤.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

العرب والانتقاص منهم[١]: (الرجز)

يـا أيُّها السائل عنِّي باكرا
اسمع ولاقيتَ الخبيرَ الخابرا
أبي خُراسانُ وأدعو عامرا
أكـــرَمُ حـــيٍّ أولاً وآخرا
... ...
لا يَحْمَدُ الوِرْدَ ولا المِصَادِرا
قد فضح البدوَ وأخزى الحاضرا
والجارَ والأقربَ والمُصَاهِرا
إيَّاك يـا ابنَ القومِ أنْ تُفَاخِرا

ربما لا نذهب بعيداً إذا آمنَّا بأنَّ تنامي الإحساس بالهُوِيَّة على حساب الآخر قد هيمن على مجريات القصيدة وبنائها عند بشار، بل تنامي العِداء القومي والديني الذي ما انفكَّ ينمو فيه حتى طغى على سير حياته ومن ثمَّ على النص الشعري لديه، ومن البديهي أنَّ هذا كله لا يستقيم مع مجتمعٍ يؤكد على الهُوِيَّة والانتماء، بل يجعلهما قوام الحياة وجوهرها، ومن هنا تشكَّل المشهد القاتم الذي يعيشه الشاعر، إذ أخفق في التوفيق بين عالَمه المادي الواقعي وعالَمه الافتراضي الخيالي، فانطلق من نظرةٍ سلبية قاصرة منعته من الاندماج نفسياً والتعايش مجتمعياً والتكيف مع ما يدور من حوله في الحياة، وهذا ما لم نجده عند أبي تمَّام، إذ كان هاجس الهُوِيَّة والشعور بالانتماء لديه حافزاً للمنافحة عن أمة العرب ورسالة الإسلام، فكانت الملاحم الشعرية القائمة على التاريخ وأحداثه تارة، وعلى الجدال والمناظرات والحِجاج تارةً أخرى، تتجسد فيها روح الانتماء والولاء، عبر استجلاب مناقب الماضي والحاضر ونفثها في النص الشعري، وهذا النوع من الانتماء الجمعي نجده مبثوثاً في قصائده، حتى غدا سمته الأدبية وهُوِيَّته الثقافية في عصر تصارُع الهُوِيَّات، ولاسيما الهُوِيَّة العربية إزاء الفارسية، والهُوِيَّة الإسلامية إزاء المجوسية، وهذا قد انعكس في النص الشعري؛ لأنَّه

(١) ديوان بشار بن برد: ج٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

أحد أوجه الهُوِيَّة والانتماء، إذ يقول[1]: (الكامل)

لك في رسولِ الله أعظمُ أسْوةٍ
وأجلُّها في سُنَّةٍ وكِتابِ
أعطى المؤلَّفةَ القلوبِ رضاهُمُ
كَمَلاً، وردَّ أخَايذَ الأحزابِ

إذ تظهرُ المعاني الإسلامية وتتجلَّى فيها هُويَّة الشاعر وعمق انتمائه، فقد استعان أبو تمَّام بآيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[3]، وبذلك فإنَّ مفهوم الهُوِيَّة والانتماء مثَّل أحد المفاهيم المركزية التي حملتها نفسُ الشاعر، واستوعبتها وتغنَّت بها ونافحت من أجلها، فالهُوِيَّة مفهومٌ يطلق (على نسق المعايير التي يُعْرَفُ بها الفردُ ويعرَّف، وينسحب ذلك على هُوِيَّة الجماعة والمجتمع والثقافة)[4]، ومَن يتتبَّع قصائد أبي تمَّام يلحظ أنَّها غالباً ما تسير على أنساقٍ متقاربة، ينتصر فيها للعرب وللإسلام ويستدعي قبائل العرب ومعارك المسلمين السابقة وأبطالها وحوادث التاريخ، ومن ذلك قوله مخاطباً قائد الجيوش واصفاً انتصاراته[5]: (البسيط)

تـا الله نَدْري: أالإسلامُ يشكرُها
من وقعةٍ أم بنو العبَّاس أم أُدَدُ
يومٌ بـــهِ أخذَ الإسلامُ زينتَه
بأسرها، واكتسى فخراً بـهِ الأبَدُ
يومٌ يجيءُ إذا قام الحسابُ ولم
يَذْمُمْه (بدرٌ) ولم يُفْضَحْ بهِ أُحُدُ
وأهلُ مُوْقَـانَ إذا ماقوا فلا وَزَرٌ
أنجاهُمُ منك في الهيجا ولا سَنَدُ

(١) ديوان أبي تمَّام: ج١/٨٥.
(٢) سورة الأحزاب: من الآية/ ٢١ .
(٣) سورة التوبة: من الآية/ ٦٠ .
(٤) الهُوِيَّة: اليكس ميكشيللي: ٧.
(٥) ديوان أبي تمَّام: ج٢/١٩. أُدّد: قوم الممدوح، مُوْقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تقع في أذربيجان: ينظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: مج٥/٢٢٥.

لم تبقَ مشركـةٌ إلا وقد علمتْ

إنْ لم تَتُبْ أنَّـه للسيفِ ما تَلِدُ

نلحظ أنَّ أبا تمَّام قد بدا كأنَّه في حيرةٍ من أمره، فمَن الذي يبدأ أولاً بكلمات الثناء، الإسلام أم بنو العباس أم قبيلته أُدَد(طيء)؟ واليوم الذي سحق فيه الأعداء قد افتخر به يومُ بدر؛ لأنَّه وافقه في الانتصار، وحمدَ اللهَ يومُ أُحُد؛ لأنَّه قد ثأر له، ثم أنَّه يخاطب قائد جيوش الفتوحات وإخماد الفتن التي ذهبت إلى أهالي الأمصار في أرمينيا وأذربيجان وجورجيا وإيران (ومنهم أهالي مناطق مُوقان) بأنَّ لا مهرب لهم ولا سبيل لخلاصهم إذا لم يرعووا ويسمعوا صوت الحق الذي جئتَ به، وكلُّ فرسان موقان ومَن سيولد سيلقون حتوفهم بسيفك القاطع، وبهذا فإنَّ الهُوِيَّة التي استقرَّت في نفس أبي تمَّام قد نَمَتْ ووصلت إلى النضوج والكمال، وأصبح الانتماء مفهوماً شمولياً، حتى تكامل عنده الشعور بالهُوِيَّة الذي ينطوي على (مجموعة من المشاعر المختلفة، كالشعور بالوحدة، والتكامُل، والانتماء، والقيمة، والاستقلال، والشعور بالثقة)[1]، وهذه العوامل كلُّها ولَّدت مواءمة كبيرة بين أبي تمَّام وبين هُوِيَّته وعمق انتمائه وحاضره الذي يعيشه، وتكوَّنت في نفسه بِنية تنظيمية بين هذه العناصر تنطوي على خصائص متجانسة تعبِّر عن معايير سلوكية جمعية.

ثانياً: الهُوِيَّة السياسية والاجتماعية وعمق انتمائها

تتباين مواقف الهُوِيَّة السياسية ومدى عمق انتماءاتها من شاعر إلى آخر، فهذا يناصر وينافح ويحرص وينصح ويحذر ويفتخر، وذاك يتلوَّن في ولائه بحسب الظروف المحيطة به، يمدح خليفةً ووالياً وقائداً ثمَّ يهجوهم بعد حين، يناصر الخلافة وأعداءها، ويرثي الزنادقة في الوقت نفسه، ويبدو أنَّ ثمَّة غايةً يصبو

(١) الهُوِيَّة: اليكس ميكشيللي: ١٥.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

لتحقيقها، إذ بدا الولاء قلقاً ومضطرباً لديه.

إنَّ سلوكيات الشاعر وإسقاطاته الفكرية والنفسية تفصح عن مدى شعوره بالانتماء وعن هُويَّته، عِبر مجموعة القيم الإنسانية التي تتجلَّى في النصوص الشعرية، والمعاني التي يحاول أن يؤسس لها في ذهن المتلقي والمجتمع، فأبو تمَّام أراد أن يوثق أياماً خالدة لأحد قادة الجيوش العباسية في معاركه ضد الفتنة الخُرَّمية بقيادة بَابَك الخُرَّمي[1]، فوقف أمامه مُنشداً[2]: (الطويل)

حَلَفْتُ برَبِّ البِيضِ تَدْمَى مُتُونَها
وربِّ القَنَا المنْـآدِ والمُتَقصِّدِ
لقد كَـفَّ سيفُ الصَّامتيِّ مُحَمَّدٍ
تَبَاريحَ ثــأرِ الصَّامتيِّ مُحَمَّدِ
رَمَى اللهُ منه بَابَكــاً وولاتَه
بقاصمةِ الأصلابِ في كلِّ مَشْهَدِ
بأسْمَحَ من غُرِّ الغَمَامِ سَمَاحَةً
وأشْجَعَ من صَرْفِ الزَّمانِ وأنْجَدِ

إنَّ الخيال الواسع الذي يمتاز به أبو تمَّام جعله يُسْفِر عن ولائه وانتمائه بصورةٍ ملحمية، فاستشعر بذاته المنتمية إلى المفاهيم الجمعية للأمة، وكانت زاوية رؤيته كبيرة فسحت أمامه مجالاً للإفصاح عن الولاء وإبراز مواطن جمال التعبيرات والصور التي تشكَّلت على وفق النسق النفسي والفكري المشترك، ولهذا نلحظ في النص تدفق العاطفة وصدقها، فقدَّم عبر القيم الجمالية نصَّاً

(١) بَابَك الخُرَّمي: قائد الفتنة الخُرَّميَّة، يقال: إنَّه كان ابن زنى، وقيل: إنَّه فارسي الأصل، دعا إلى الإباحة وإتباع الشهوات، قتل مائة وخمسين ألفاً وخمسمائة من العرب والمسلمين، ظفر به الخليفة المعتصم وقتله سنة ٢٢٢هـ. ينظر: الوافي بالوفيات: الصفدي: ج١٠/ ٣٩-٤٠.

(٢) ديوان أبي تمَّام: ج٢/ ٢٤. مَحُمَّد الأول هو مُحَمَّد بن يوسف الثغري الصامتي الطائي قائد الجيوش العربية الإسلامية، وهو المقصود في القصيدة، أما مُحَمَّد الثاني فهو مُحَمَّد بن حُمَيْد الصامتي الطائي، كان قائد الجيوش قبل أن يستشهد في معارك الخُرَّمية نفسها، وكلاهما من بني الصامت أحدى بطون طيء.

شعرياً يمثِّل الأمة وتأريخها، ورسم ملامح الخط السياسي له، وقد أوغل في ولائه لجيش الخلافة وقادته من مثل قوله واصفاً أحد قادة الجيش ومدى فتكه بالأعداء[١]: (البسيط)

راحَ التَنَصُّلُ مَعْقُوداً بـــألسُنِهِم
لَمَّا غدا السيفُ في أعناقهم حَكَمَا
كانوا على عهد كسرى في الزَّمان ولن
يسْتَشْرِيَ الخَطْبُ إلَّا كلَّما قَدُمَا
فـــي كلِّ جَوْشَنِ دهرٍ منهمُ فئةٌ
تُرْجِي رحى فتنةٍ قد أشْجَتِ الأُمَمَا
حتى إذا أينعتْ أثمـــارُ مُدَّتهم
أرسلك اللهُ للأعمـــارِ مُضْطَرِما
أطعتَ ربَّكَ فيهم والخليفـةَ قـــد
أرضيْتَه وشَفَيْتَ العُـرْبَ والعَجَمَا
تَركْتَهم سِيَرَاً لـــو أنَّهـــا كُتِبَتْ
لم تُبْقِ في الأرضِ قرطاساً ولا قلما

فالشاعر جعل وضع السَّيف على رقاب الأعداء هو الحَكَم العادل لهم؛ لأنَّهم في كلِّ زمان ومكان تخرج منهم الفتن الواحدة تلو الأخرى تذوق الأمة الويلات جرَّاءها، لكن الجيش وقائده أطفأوا هذه الفتن وأبادوا أصحابها، إذ عاطفة سخط الشاعر على الأعداء حاضرة، فضلاً عن عاطفة الرضا عن سياسية الدولة وكيفية معالجتها لما يحدث من أحداث، وقد اصطنع أبو تمَّام لنفسه لغةً تسمو إلى مستوى نفسه الثائرة الراضية في الوقت نفسه، لتصوير ما فيها من آثار القوة الوجدانية، معتمداً على صدق الفكرة وحُسْن تنسيقها داخل النص، وبشارُ بن برد لا تغيب عنه هذه الفكرة، إذ يرسم ملامح خطِّه السياسي في أحايين كثيرة بصورة مميزة، فهو يجد في البرامكة ملاذه وما ينسجم ويتوافق مع ما هو متأصِّل في نفسه، إذ صلة القربى وغيرها من القواسم المشتركة فيلجأ لهم بالمدح والتمجيد، والتغنِّي بآبائهم

(١) ديوان أبي تمَّام: ج٣/ ١٧١.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وأجدادهم، إذ يقول[1]:(الطويل)

لَعَمْرِي لقد أَجْدَى عليَّ ابنُ بَرْمَكٍ
وما كلُّ مَن كان الغِنى عنده يُجْدِي
حلبتُ بِشِعْرِي راحتَيْهِ وقــد رفا
سَمَاحاً كما درَّ السَّحابُ على الرَّعْدِ
وثَغْرٍ كأفْـوَاه الأُسُوْدِ سَدَدْتَه
بِسُمْرِ القَنَـا والبِيضِ والقُرَّحِ الجُرْدِ
مقامُـكَ محمودٌ وسَيْبُكَ واسعٌ
وبيْتُكَ مرفــوعُ الدَّعائمِ بالمَجْدِ
مُفيـدٌ ومِتْلافٌ سبيلَ تُرَاثـهِ
إذا مــا غدا أو راحَ بالجَزْرِ والمَدِّ
سَبَقْتَ بأيَّــامِ المكارمِ والعلا
تُرَاثَ أبٍ نــالَ المكارمَ عن جدِّ

نلقى الشاعر وهو يتوشَّح بكلِّ ما يعينه على ما يصبو إليه، استهلها بالقَسَم وختمها بالتغنِّي بمكارم آباء وأجداد البرامكة، ومن غير المنطقي قَطْعَاً أن النصَّ قد جاء على وفق سياقٍ عفويٍّ، بل تعمَّقتْ فيه روحُ الانتماء للهُويَّة طابعاً وعنواناً، تنمُّ عن تطابقٍ في الرؤية السياسية والفكرية بين طَرَفَي المعادلة(بشار وابن برمك)، فالشاعر لجأ إلى الماضي والحاضر والنسب والحسب والأصول والأعراق، وهذا ما يؤكده مع مَن يشاطرونه المعتقد والفكر والرؤية، ومن ذلك قوله في رثاء أصدقاء له كانوا من الزنادقة[2]: (الخفيف)

كيف يصفو لــيَ النعيمُ وحيداً
والأخِلاَّءُ في المقابرِ هامُ
نَفِسَتْهُم عليَّ أمُّ المنايــــا
فأنامَتْهُمُ بعنفٍ فنامـوا
لا يغيضُ انسجامُ عيني عليهمْ
إنَّما غايةُ الحزينِ السِّجامُ

ربما تتضح مواطن الهُويَّة السياسية بشكلٍ جلي في هذا النص، بل تتجلى الانتماءات

(١) ديوان بشار بن برد: ج٣/١٢٥، وجدنا أنَّ جملة (وقد رفا) في نهاية الشطر الأول من البيت الثاني أنها مرتبكة في المعنى، فضلاً عن أنَّ فيها خلافاً، وعلى وفق اعتقادنا نظنُّ أنَّها (وقد همى)، وبذلك يكون سياق المعنى والوزن منسجماً.

(٢) ديوان بشار بن برد: ج٤/١٧٨.

الدينية وحالة الاغتراب النفسي التي حملته على التلوُّن في مواطن كثيرة في شعره[١]، وهذا التلوُّن في الولاء والانتماء والتقلب في المبادئ أقرَّه نقَّاد وباحثون كثر ومصادر متنوعة[٢]، وفي اعتقادنا أنَّ هذا التلوُّن هو ظاهريٌّ فحسب، بما تقتضيه الضرورة ويتطلبه الموقف، أمَّا الأصل فهو يلتزم خطًّاً واحداً وهو الهُويَّة الفارسية المجوسية، والعداء من كلِّ ما سوى ذلك، ولاسيَّما من العرب والمسلمين، فقد اندفع بنفسٍ ملتهبةٍ بالأسى والحزن على فَقْد الزنادقة، وبقلبٍ جريح يملؤه الانكسار، (وممَّا يوثِّق اتهامه بالزندقة تعاطُفُه مع قتلى الزنادقة، ورثاؤه لهم، وحزنه عليهم)[٣]، وهذا ما نلحظه عند بشار على المستويين الفكري والواقعي، أمَّا أبو تمَّام فقد كان غالباً ما يزاوج بين الجانب السياسي والجانب الاجتماعي لتدعيم فكرة، أو تأصيل صورة، أو بيان حالة، أو تعزيز نظرية، ولهذه الأسباب نجد أنَّ الانتماء السياسي عادةً ما يمتزج بالهُويَّة الاجتماعية في شعره، يتكلَّم ويصوّر أنَّ المجتمع من خلفه كلَّه يتكلَّم، وينشد القصيدة بلسان حال القبائل كلِّها والمجتمع برمَّته، ومن ذلك قوله[٤]: (الوافر)

ولو أنِّـي استطعتُ لقامَ عنِّي
بِشُكْرِكَ مَن مَشَى فوقَ التُّرابِ
إذاً شَكَرَتْـكَ مَذْحِجُ حيثُ كانت
بنـو دَيَّـانِهـا وبنو الضِّبابِ
وجئْتُكَ فـي قُضاعةَ قـد أطافتْ
بِرُكْنَي عامـــرٍ وبني جَنَابِ
ولاسْتَنْجَدْتُ حَنْظَلَةً وعَمْـرَاً
ولم أعْـــدِلْ بِسَعْدٍ والرِّبابِ

(١) يمتدح ثم يهجو الممدوح نفسه . ينظر مثلاً: ديوان بشار بن برد: ج٣/ ٥٠، ج٤/ ١٧٤، وغيرها.

(٢) ينظر مثلاً: بشار بن برد حياته وشعره: د.هاشم مناع: ٩ ـ ١٠ .

(٣) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول: د.حسين عطوان: ٤٣ .

(٤) ديوان أبي تمَّام: ج١/ ٢٨٧.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

ولاسْتَرْفَدْتُ مـن قـيسٍ ذُرَاها
بني بَـــدْرٍ وصِيْدَ بني كِلابِ
ولاحْتَفَلَتْ ربيعةُ لـي جميعاً
بأيَّـــامٍ كأيَّـــامِ الكُلابِ
فأشْفي من صميمِ الشُّكْرِ نفسي
وتَـرْكُ الشُّكرِ أثقـلُ للرِّقـابِ

لقد حشَّد أبو تمَّام طاقاته الشعرية في استحضار عددٍ كبير من القبائل العربية والمظاهر المجتمعية المتنوعة في سبيل تقديم الشكر والعرفان، بل كلُّ مَن مشى فوق التراب ينبغي أن يأتي منقاداً ومذعناً لمحاسن الممدوح وخصاله وأفعاله، والنصُّ غنيٌّ بالحركة والحيوية يفضي إلى تبيان الهُوَيَّة السياسية ومدى الانتماء الاجتماعي الذي يستشعر به الشاعر، مبتكراً للأساليب الشعرية والروابط التي تربط أبيات القصيدة فيما بينها من الجوانب كافة، إذ إنَّ العرب تنظر (في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض)[1]، ويعمد إلى كلِّ ما مضى ليكون النصُّ على نحو ما يبتغي من الابتكار والتأثير، وهو في خضمِّ هذا الأساليب والروابط لا يغفل من مزج هُويَّته السياسية بانتمائه الاجتماعي، فيعمل على مواظبة استنطاق المجتمع بأطيافه كافَّة، ومن ذلك قوله في مدح الخليفة الواثق[2] مهنئاً له بالخلافة[3]: (الكامل)

لمَّا دعوْتُهُم لأخْـــذِ عهودِهِم
طـارَ السُّرُورُ بِمُعْرِقٍ وشآمِ
فكأنَّ هــذا قـادمٌ مـن غَيْبَةٍ
وكـــأنَّ ذاك مُبَشَّرٌ بِغُلامِ
لـو يَقْدِرون مَشَوا على وَجَنَاتِهِم
وعيونِهِم، فضلاً عـن الأقدامِ

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني: ج١/١٢٩.
(٢) الخليفة الواثق: الواثق بالله, أبو جعفر, ابن المعتصم بن الرشيد, ولد سنة (١٩٦هـ), وولي الخلافة سنة (٢٢٧هـ), كان وافر الأدب, مليح الشعر, توفي سنة (٢٣٢هـ). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢٧٠, ٢٧١, ٢٧٢.
(٣) ديوان أبي تمَّام: ج٣/٢٠٦.

قُسِمَتْ ـ أميرَ المؤمنين ـ قلوبُهُم
بين المحبَّة فيـك والإعظامِ
... ...
هي بيعةُ الرِّضْوانِ يُشْرَعُ وسْطَها
بـابُ السَّلامةِ فادْخلوا بِسلامِ

امتاز أبو تمَّام في هذا النصِّ بحسن الخيال؛ إذ عنى بعرض الصورة التي تلائم هذه الحادثة، فالسرور طار بمن في العراق والشام، ومحاولة المشي على الوجنات والعيون وهذا ممَّا هو غير مألوف، عبر الخيال الجميل الهادف إلى إثارة العواطف وإمتاع النفوس، فكان صدق التعبير والإجادة في التصوير عاملين رئيسين في إثبات الولاء السياسي بعنفوانه المفعم بالانتماء.

وربما لا نجانب الصواب إذا قلنا إنَّ بشاراً قد فشل فشلاً ذريعاً في التمويه عن عقيدته الحقيقية، فلم يجد بُدَّاً من الإفصاح عنها حتى غدا مكشوفاً بما يخالج نفسه من اعتقاد ورؤية، على الرغم من أنَّه حاول التضليل وإخفاء ذلك، فصار يمتدح الأمويين تارة والعباسيين تارة أخرى[١]، ويهاجم بعضَ مَن أمسك عليه العطايا[٢]، ويظهر ولاءه إلى الموالى إذ يجد فيهم ضالته[٣]، لكن هذا وغيره يفصح عن هُويَّته السياسية، وابتعاده الكبير عن الانتماء الاجتماعي ـ على عكس ما نلقاه عند أبي تمَّام ـ فكان غالباً ما يشعر بالغربة المادية والمعنوية والهوَّة الكبيرة بينه وبين أطياف المجتمع العبَّاسي.

ثالثاً: الانتماء إلى الماضي والهُوِيَّة المكانية

من البديهي جداً، أن يلجأ الشاعر إلى الماضي عفواً أو قصداً، في محاولة لإظهار إبداعه وفنه ولتبيان غاية ما في نفسه، فالماضي يعطي طابع الرمز للهُوِيَّة والانتماء، لتحدث عملية تفاعل نفسية

(١) ينظر: ديوان بشار بن برد: ج١/٣١٢، ج٣/٢٤٧، وغيرها.
(٢) ينظر: ديوان بشار بن برد: ج٣/١١٨، وغيرها.
(٣) ينظر: ديوان بشار بن برد: ج٣/٤٤، وغيرها.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

ووجدانية نتيجة انصهار فكرةٍ ما في ذهن الشاعر وتموضعها فيه، وإنَّ توظيف الشاعر للماضي يعني التعبير عن طريق الرمز والإيحاء أو التصريح عن رؤاه الحالية، وكل ما مختزن في الذاكرة يعبر عن كينونة الشاعر وكيانه، ويُعبِّر عن مكانته في المجتمع ومن ثمَّ مكانة المجتمع نفسه، فضلاً عن مكانة الأمة، ومن هنا عُدَّ الشعرُ ديوان العرب وسجل حياتهم ومآثرهم وعنوان رقيهم وثقافتهم، وهذا يتضح جليَّاً في ثناء ابن سلاَّم الجُمحي على لبيد؛ إذ وصفه أنَّه كان(خيرَ شاعرٍ لقومه: يمدحُهُم، ويرثيهم، ويَعُدُّ أيامهم ووقائعهم وفرسانهم)[1]، ولعلَّ هذا ما يبرر لجوء أبو تمَّام في أحايين كثيرةٍ جداً إلى الماضي، ومن ذلك قوله في خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني[2] وجيشه[3]:(الطويل)

فما دبَّ إلَّا فـــي بيوتهم النَّدى
ولم تَرْبُ إلَّا فـــي حُجورهم الحربُ
أُولاكَ بنو الأحســـابِ لولا فَعالُهُم
دَرَجْنَ، فلم يوجـــدْ لمَكْرُمَةٍ عَقْبُ
لهم يومُ ذي قـار مضى وهو مُفْرَدٌ
وحيدٌ من الأشْبَاهِ ليس لـه صَحْبُ
بـــه عَلِمَتْ صُهْبُ الأعاجمِ أنَّه
بهِ أعْرَبَتْ عن ذات أنفسها العُرْبُ
هو المشهدُ الفَصْلُ الذي ما نجا بهِ
لكسرى بنِ كسرى لا سَنَامٌ ولا صُلْبُ

فقد لجأ أبو تمَّام إلى استذكار الماضي واستحضاره، مستلهماً أحساب العرب وأنسابهم وقدراتهم في سحق الفرس المجوس في معركة ذي قار، وقد شكَّل الماضي دعامةً مهمة من دعائم النص

(١) طبقات فحول الشعراء: ابن سلاَّم الجُمحي: ١٣٦.

(٢) هو خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني، من بيت إمْرةٍ ووجاهةٍ وشجاعةٍ وكرمٍ ورئاسة، كان قائد الجيش العظيم الذي أُرسِل إلى أرمينيا عندما اختلَّ أمرها، توفي سنة(٢٣٠ه). الوافي بالوفيات: الصفدي: ج١٣/ ١٦٩.

(٣) ديوان أبي تمَّام: ج١/ ١٨٧.

وأدَّى دوراً محوريَّاً في تعميق دور الأمة وإبرازه وبوح الشاعر بمدى عمق انتمائه إليه، دون أن يمحو ذوقه وشخصيته، فالنصُّ يحتفظ بخواصِّه العقلية والوجدانية والأسلوبية، فضلاً عن الجانب التاريخي الذي يزخر به النص، (فالتاريخُ مادةٌ خصبةٌ للأدب، تمدُّه بالمعارف السالفة، والتجارب المختلفة، يتخذ منها موضوع قصصه وآيات استشهاده)[١]، وهذا هو دأب أبي تمَّام في قصائده، يعجزها رجوعاً إلى التاريخ، ويفعمها بالماضي، ومن ذلك قوله في أبي دُلَف العِجْلي[٢] واصفاً إياه وجيشه[٣]:(الطويل)

إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الحرْبِ صَدَّعوا
صُدُورَ العوالي في صُدُورِ الكتائبِ
إذا افْتَخَرَتْ يومـــاً تميمٌ بقوسِها
وزادَتْ على ما وطَّدتْ من مناقبِ
فأنتم بذي قـــارٍ أمَالَتْ سُيُوفُكُم
عُرُوشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجبِ
مَحاسِنُ مـــن مَجْدٍ متى تَقْرنُوا بها
مَحاسِنَ أقـــوامٍ تكنْ كالمعايبِ
مَكارِمُ لَجَّتْ فـــي عُلُوٍّ كأنَّها
تُحاولُ ثـــأراً عند بعضِ الكواكبِ

لا وَصْفَ لقائدٍ عند أبي تمَّام إلا بالرجوع إلى الماضي، وهو يتوق إلى ذكر المناقب والمآثر، إذ شكَّلت فلسفة الماضي وبثُّ روح الانتماء له صنو النص وأيقونته الأدبية، وخلاصة فكر الشاعر ووسيلته في الوصف، وكانت نزعته في استخلاص صفوة الماضي ولاسيما تأريخياً يعكس مدى الفيض العاطفي الذي يصعب على النفس كبته، فهو يصبو دائماً للخروج من دائرة الحاضر إلى فضاءات الماضي، وإنَّ بشاراً هو الآخر قد طلب الماضي

(١) أصول النقد الأدبي: د.أحمد الشايب: ٥٤ .
(٢) أبو دلف العجلي: أبو دُلَف العجلي القاسم بن عيسى الأمير صاحب الكرج ووالياها, كان فارساً شجاعاً جواداً مُمَدَّحاً وشاعراً محسناً, ولِّي حرب الخُرَّميَّة فأبادهم, له تصانيف متعددة, توفي سنة (٢٢٦ه). ينظر: الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٢٤/١٠٣, ١٠٤, ١٠٧.
(٣) ديوان أبي تمَّام: ج٢/٢٠٧.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

واستعان به، لكن على غير الحال التي رأيناها عند أبي تمَّام، إذ استعان به في محاولة لرفد نصِّه الشعري في استذكار عهود الهوى، وعضَّده بتجارب العشاق من قبله وأمدَّه بما آلوا إليه، إذ يقول في وصف لوعته على حبيبته عُبَيْدَة[1]:(الطويل)

إذا قلتُ يصفو من عُبَيْدَةَ مَشْرَبٌ
لحَرَّانَ صادٍ كدَّرَتْ في غـدِ شِرْبِي
وقد كنتُ ذا لُبٍّ صحيحٍ فأصبحتْ
عُبَيْدَةُ بالهجرانِ قـد أمْرَضَتْ لُبِّي
ولستُ بأحيا من جميلِ بنِ مَعْمَرٍ
وعروة إنْ لم يَشْفِ مـن حُبِّها ربِّي

(١) ديوان بشار بن برد: ج٢١٥/١. جميل بثينة: هو جميل بن عبد الله بن مَعْمَر من ضبَّة ثم قضاعة، أحد عُشاق العرب، عشِق بثينة وهو غلام، هلك حبّاً وشوقاً لها، توفي سنة (٨٢ه). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان: مج٣٦٦/١ وما بعدها. عروة: هو عروة بن حِزام، أحد متيَّمي العرب ومَن قتله الغرام، مات عشقاً في عفراء في نحو سنة(٣٠ه). الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٣٥٧/١٩.

تَعُدُّ قليلاً مـا لَقيْتُ من الهوى
وحسبي بما لاقَيْتُ من حُبِّها حسبي

فقد انكبَّ الشاعر على تجارب الماضي وما لاقاه السابقون من لوعة عشقٍ وجوى، ودمعة بُعْدٍ وضنى، ولهفة قلبٍ وصبابة، وبثَّ شكواه وزفراته المحرقة بتحسُّرٍ وحرقةٍ وأسى، فالشجو يهيمن على مجريات النص، والجزع يسيطر على نفس الشاعر، كما هي حال الشعراء السابقين الذين هلكوا قبله في طلب الحبيبة، وهو في كلِّ هذا يخلق أجواءً من المقايسة والمقارنة بين تجربته وتجارب مَن سبقه، عبر عواطف صادقة وروح يدميها الفراق وهتكت أسرارها الحسرة والكمد، ويبدو أنَّ ذكر الحبيبة وأيَّامها قد استحوذ على جزءٍ غير قليل من شعر بشار، فقد ظلَّ يذكرها كثيراً ويقيم لها في نفسه مأتماً وعويلاً، ومن ذلك قوله[2]:(الطويل)

(٢) ديوان بشار بن برد: ج٥٧/٢ .

خليليَّ عوجـــا بـي على طَرباتي
فَوَ اللهِ لا أنسى الحبيبَ حياتي
وما ذُقْتُ طعمَ النَّومِ مُذْ مَسَّني الهوى
ولا الكأسَ إلَّا ماؤهـــا عَبَرَاتي
ودَارتْ صبابـــاتُ الهوى بمسامعي
كما دَارَ مَخْمُورٌ مـن النَّشَواتِ

فالشاعر يستذكر الماضي ويبكي عليه ويندبه، ويرسم معاناته النفسية عبر ذكريات مضت، فعدمُ النسيان والسهاد ومواظبته على البكاء حتى غدا كالثمل علاماتٌ لاضطراب نفسي قد أثَّر سلباً على واقع الحياة وديمومتها، ويبدو أنَّ التوكؤ على ذكريات الماضي المؤلمة قد منحت الشاعر طاقة شاعرية متدفقة وأعانته في تصوير شكواه وأحزانه وإيصالها للمتلقي، عبر خلق مناخات مناسبة للتواصل بين الماضي والحاضر، هي في الأصل مناخات تعبِّر عن روح الانتماء القابعة في أعماق الشاعر.

وقد أنجدَ أبو تمَّام النصَّ الشعري كذلك بذكر المتقدمين، في مواقف تبدو مغايرة لما هي عليه عند بشار، فهو عندما يريد أن يتفجع على مَن فارقهم لا يحمل نفسه على البكاء المستديم، فنفسُ أبي تمَّام تأبى ذلك، بل يبكي عاماً واحداً فقط ليكون وفيَّاً صادقاً، إذ يقول[١]: (الكامل)

ظَعَنُوا فكان بُكايَ حَوْلاً بَعْدَهُم
ثُمَّ ارْعَوَيْتُ، وذاك حُكمُ لبيدُ
أجْدَرْ بجمرةِ لوعـةٍ إطفاؤها
بالدَّمعِ، أنْ تزدادَ طولَ وُقُودِ

إذ بكى أبو تمَّام على ما مضى بعد رحيل الأحبة عاماً كاملاً ثم ارعوى، فحرقة الجوى ينبغي إطفاؤها ليس بالدمع وإنَّما بالتجلُّد والتصبُّر، وقد عمد إلى استحضار الشاعر لبيد[٢] والاحتكام إلى

(١) ديوان أبي تمَّام: ج١/٣٨٧.
(٢) هو لبيد بن ربيعة العامري، شاعر مخضرم، وصحابي، قَدِم على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) مع قومه فأسلم وحسن إسلامه، كان شريفاً قبل الإسلام وبعده، توفي سنة(٤١هـ). الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٤/٢٩٩.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

قوله[1]:(الطويل)

إلى الحَولِ ثُمَّ اسمُ السلامِ عليكما
وَمَنْ يبكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذرْ

إنَّ ثمَّة علاقة وترابطاً بين الشاعر ورمز الماضي(لبيد)، عملت على خلق نظامٍ جديدٍ في العلاقات النفسية داخل النص، وقد أخذ مسارُ أبي تمَّام منحى خاصاً في الرجوع إلى الماضي، إذ لم يكن ذاك الشاعر الضعيف الذي غلب عليه الهوان كما نجد ذلك عند بشار، بل كان يحيط نفسه بالمنعة والقوة والفخر والهيبة والوقار، وله في هذا الميدان مواقف كثيرة[2]، ولعلَّ من أجلِّها وأسماها ذلك الموقف الذي يصف فيه الخليفة الواثق، إذ يقول[3]:(الكامل)

نــورٌ من الماضي عليكَ كأنَّه
نـورٌ عليه من النبيِّ مبينُ
يسمو بك السفَّاحُ والمنصورُ والـ
ـمَهْديُّ والمَعْصُومُ والمأمونُ

(١) ديوان لبيد بن ربيعة: ٧٤.
(٢) ينظر مثلاً: ديوان أبي تمَّام: ج١/١٣٤، ٤٠٧ .
(٣) ديوان أبي تمَّام: ج٣/٣٢٧ . السفَّاح: أبو العبَّاس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب, أوَّل الخلفاء العباسيين, ولد سنة (١٠٨هـ), وقيل: (١٠٤هـ), بويع بالخلافة سنة (١٣٢هـ), توفي بالجدري سنة (١٣٦هـ). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢٠٤-٢٠٥. الخليفة المنصور: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد سنة (٩٥ه)، توفي محرماً على باب مكة سنة (١٥٨ه) ودفن بقربها. ينظر: فوات الوفيات والذيل عليها: محمد بن شاكر الكتبي: مج٢/٢١٦ . الخليفة المهدي: أبو عبد الله محمد بن المنصور، ولد سنة (١٢٧ه)، كان جواداً ممدَّحاً، مليح الشكل، محبباً إلى الرعية، حسن الاعتقاد، تتبع الزنادقة وأفنى منهم خلقاً كثيراً، وهو أول مَن أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، توفي سنة (١٦٩ه). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢١٦-٢١٧. الخليفة المأمون: عبد الله أبو العباس ابن الرشيد، ولد سنة(١٧٠ه)، برع في الفقه، والعربية، وأيام الناس، وكان ذا حزم، وعزم، وحلم، وعلم، وأدب، وشجاعة، وسماحة، سار إلى غزو الروم وفتح حصوناً كثيرة، توفي سنة(٢١٨ه). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩.

مَـن يَعْشُ ضوءَ الآل يعلمْ أنَّهم
مَلأٌ لـدى مَلأَ السَّماءِ مَكينُ
فُرســانُ مملكةٍ، أُسُودُ خلافةٍ،
ظِلُّ الهدى، غابٌ لها وَعَرينُ

لقد زخر النصُّ بعلامات الانتماء إلى الماضي وأُفْعِمَ بسيماء الإبانة للهُوِيَّة التي اتخذت من نور النبي(صلى الله عليه وسلم) والخلفاء العباسيين أجداد الخليفة الواثق عماداً للنص، فقد وظَّف أبو تمَّام الماضي لعرض الفكرة وإيصالها بأسلوبٍ تعبيريٍّ مثير، وزاوج بين التاريخ والخيال وجعل الماضي يبعث أنواره إلى الحاضر، راسماً خطاً افتراضياً بينهما، والخلافة غابة لها حافظ وصائن.

وقد يتخذ استذكار الماضي وبثُّه في النصوص الشعرية سياقات أخرى غير التي ألفناها سابقاً (في هذه الدراسة)، فقد يتداخل الانتماء إلى الماضي بالهُوِيَّة المكانية، إذ يطلُّ المكان بملامحه المادية والمعنوية من شُرُفات النص ويكون الرئة التي يتنفس عبرها الشاعر، فالمكان يعيد خلق الصورة ويعمِّق إضاءتها وسطوعها ودلالاتها، ويعطي للنصِّ أصالةً وعنفواناً وهُوِيَّة، فيظهر عمقُ انتماء الشاعر له، وقد شكَّلت المرأة هاجساً درامياً حاملاً لعلامات نفسية فارقة، والراجح لدينا أنَّ الهُوِيَّة المكانية تمرُّ في أحايين كثيرة عبر بوابة الانتماء إلى المرأة، يصبح الماضي جَذِلاً بوجودها وشجيَّاً بغيابها، يقول بشار بن برد[1]:(الطويل)

طَرِبْتُ إلى(حَوْضَى) وأنتَ طَرُوبُ
وشاقكَ بين (الأبرقين) كثيبُ
ونُؤْيٌ كخلخالِ الفتـاةِ، وصائمٌ
أشجُّ على ريبِ الزَّمان رقُوبُ

نلحظ أنَّ المكانَ قد أصبح فضاءً تعددت وظائفه ومعانيه وحمل الهُوِيَّة المكانية

(١) ديوان بشار بن برد: ج١/٢٠٨ . حَوْضَىَ: اسم ماء لبني طهمان بن عمرو بن سلمة إلى جنب جبل في ناحية الرمل في نجد. معجم البلدان: ياقوت الحموي: ج٢/٣٢١ . الأبرقان: هو تثنية الأبرق، ويريدون به حُجْر اليمامة على طريق مكة. معجم البلدان: ياقوت الحموي: ج١/٦٦.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

التي استوطنت روح الشاعر وتخومها، واستشعر بالشوق والانتماء إليه ولاسيَّما أنَّ هذا المكان مُتْرَعٌ بالماضي الذي يعبق بذكريات الحبيبة، فنشأت علاقة تأثر وتأثير تبادلية بين الشاعر والماضي الزاخر بالمكان والمرأة اللَّذَيْن يحاكيان ذات الشاعر ويغرسان بها مفاهيم الهُويَّة والانتماء، وهذا ما نستوحيه من النصوص الشعرية لدى بشار بن برد الذي تَوَاتَرَ على اقتران المكان بالمرأة، فوصف اقترانها وصلتها المستحكمة به، ومن ذلك قوله[1]: (الطويل)

عفَا بعدَ سلمى حاجرٌ فَذُنَابُ
فأَحْمَادُ حَوْضَى نُؤْيُهُنَّ يَبَابُ
ديارٌ خَلَتْ من آبِداتٍ ولم يكنْ
بها الوحشُ إلَّا جاملٌ وقِبابُ
كـأنَّ بقايـا عَهْدِهِنَّ بحاجرٍ
فَبُرْقَةِ حَوْضَى قد دَرَسْنَ كتابُ

لقد جعل الشاعرُ النصَّ يزخر بالأماكن ومتعلقاتها مستحضراً هواجس الحزن بعد رحيل أهلها منها، ولاسيَّما سلمى المرأة الرمز التي طال بكاؤه عليها وتحسُّره على فراقها، وقد تخطَّى المكانُ الحاجزَ الجغرافي وأصبح يحمل الآلام النفسية والخيالات وذكريات الماضي، وصار قرين أحاسيس نفسٍ أتعبها الفراق فهي بين جفاءٍ وانتماء، وهذا هو انعكاس للارتباط اللاشعوري بالمكان وآهليه، ولإيحاءات عاطفية نفسية متجذِّرة في نفس الشاعر قوامها الشعور بأنَّ ثمَّة عوامل ذاتية تشدُّه إلى الانتماء المكاني، وقد أدَّى الانتماء المكاني دوراً وظيفياً يؤكد على التواصل والامتداد بينه وبين الشاعر، فأبو تمَّام لا يجد بُدَّاً من الماضي والمكان العابق بذكر الأحبة،

(١) ديوان بشار بن برد: ج٢٤٨/١. حاجر: ما يمسك الماء من شفة الوادي. معجم البلدان: ياقوت الحموي: ج٢٠٤/٢ . ذُناب: موضع بالبطائح بالقرب من البصرة. معجم البلدان: ياقوت الحموي: ج٧/٣ . برقة حَوْضى: من نواحي اليمامة. معجم البلدان: ياقوت الحموي: ج٣٩٠/١.

فينتشي بهم جميعاً ويضوع شذا هواجسه التي تجذبه نحو هذا الماضي وذاك المكان ومَن فيه، إذ يقول[١]:(الكامل)

أحْسِنْ بأيَّامِ العقيقِ وأطْيِبِ
والعيشُ في أظْلالِهِنَّ المُعْجِبِ
ومَصِيْفِهِنَّ المُسْتَظِل بِظِلِّهِ
سِرْبُ المهـا وربيعِنَّ الصَّيِّبِ

لقد استهلَّ أبو تمَّام النصَّ بطلب الإحسان ثمَّ الإعراب عن المسوغات التي دعته إلى ذلك، إذ العيش المُنعَّم والأجواء التي تزدان بوجود أسراب النساء اللواتي هنَّ كالربيع الدائم الخير والواصب النِّعَم، ولم يبقَ المكان حبيس الواقع، وإنَّما اجتازه إلى تجربةٍ أدبيةٍ مشحونةٍ بدلالات الأُنس والأُلفة والمنادمة، وقد استجمع كل معاني الانتماء للأرض وساكنيها، وبهذا غالباً ما يكون الانتماء إلى الماضي والحنين له نزوعاً فطرياً ووشيجةً من وشائج التفاعل بين الشاعر وحاضره ورؤاه القادمة، وأثيراً ينبثق من الوجدان ويبعث في الذات الأمل، وقد يبعث الماضي أحياناً عند أبي تمَّام على الألم والكمد، فتهتاج نفسُه وتحصل انفعالات نفسية بعد خلوِّ المنازل من ساكنيها، وفي ذلك يقول[٢]:(الطويل)

شَهِدْتُ لقد أقْوَتْ مَغَانِيْكُمُ بَعْدِي
وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وشائعُ من بُرْدِ
وأنْجَدْتُمُ مـن بَعْدِ إتْهامِ دارِكمْ
فيا دمعُ أنْجِدْنِي على ساكني نَجْدِ
لعمري لقد أخْلَقْتُمُ جِدَّةَ البُكا
بُكـاءً، وجَدَّدْتُمْ بهِ خَلَقَ الوَجْدِ

فلم يبقَ سبيلٌ أمام الشاعر سوى الدمع بعد رحيلهم إلى نجد وقد كانت تهامة تعبق بوجودهم، حتى غدا الدمع لا يجدي إزاء الوجد والتلهف على ماضٍ تولَّى، وقد غلب على النصِّ حسٌّ جماليٌّ مرهفٌ تتملكه غصَّة الرحيل، إذ استطاع أبو تمَّام بعبقرية الفنان المبدع أن

(١) ديوان أبي تمَّام: ج١/ ٩٢ .

(٢) ديوان أبي تمَّام: ج٢/ ١٠٩ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

يظهر أصالة الانتماء للماضي وللمكان وساكنيه، ومدى تعلُّقهِ بهذه المفاهيم بإحساسٍ مأساويٍّ يبثُّه من قاع روحهِ الثَّكلى، وبذلك فإنَّ التجربة الواقعية اكتسبت الديمومة والاستمرارية عبر نص يعي الماضي وينتمي إليه ويحمل هُويَّته ويمزجه بحاضر الحياة؛ لأنَّ (كل ملامسة للمكان إنَّما هي ملامسة لشبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالمجال المعيشي ارتباط وجود، وانتماء، وهُويَّة)[1]، وهكذا يغدو الانتماء المكاني بؤرة مركزية ذات أبعاد دلالية معنوية وإيحائية عميقة، فضلاً عن الدلالات الرمزية التي ترسم في النفس مناخاً من الشعور بوجود الذات وامتداداتها عبر الزمن، فيخلق الشاعرُ عبرها عالَماً جديداً له ويصوغ بمقتضاها انبعاثات النفس وكوامنها.

(١) فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية: د.حبيب مؤنسي: ٧ .

الخاتمة والنتائج:

- إنَّ الانتماء الديني والقومي والسياسي والاجتماعي والانتماء إلى الماضي والهُويَّة المكانية أهم ما تجلَّى في ديوان الشاعرين.
- إنَّ هُويَّة الإنسان تمثل عمقه التاريخي وامتداداته السابقة عبر أزمنة بعيدة في المفاهيم كلها التي تحيط به ومن جوانب الحياة كافة.
- إنَّ العلاقة بين الشاعر وبين جذوره الدينية والقومية علاقة وثيقة، انعكست على رؤيته التركيبية في الحياة ومن ثمَّ في النص الشعري، وانسجمت مع النزعة الفكرية التي يحملها والقابعة في ذاته، ومع امتداداته ودلالات هذا الامتداد وجدلياته، وهي بذلك علاقة تلازمية منحت الشاعر أحياناً شعوراً بالتمايز على وفق هذه الانتماءات.
- مهما حاول بشار بن برد الاندماج

في المجتمع العبَّاسي والانتساب إلى الإسلام، فإنَّه لم يبخل عند أية فرصةٍ مواتية أن يُظهر هُويَّته الدينية والبوح علناً أو ضمناً ويفصح عن انتماءاته القومية.

- إنَّ أفكار الشاعر وفلسفته ورؤاه في نصوصه الشعرية ما هي إلا انعكاس لهُويَّته ومدى تجذرها في ذاته، وصورة لأبعاد انتماءاته ومدى تأصُّلها في أعماقه.
- إنَّ الخطابات الشعرية والإسقاطات الفكرية والنفسية التي تتموضع في مفاصل النص، تشكل بمثابة محطات الشاعر لرسم معالم هُويَّته وانتماءاته.
- إنَّ العلل النفسية (الرق والعبودية)، والعلل الجسدية(العمى وغيرها)، والعلل العقائدية(الشعوبية والزندقة) وفساد معتقده، أهم العوامل التي جعلت بشار بن برد ما يفتأ ينفث سمومه ويصب جام غضبه على العرب.
- إنَّ تنامي الإحساس بالهُويَّة على حساب الآخر وتنامي العِداء القومي والديني قد هيمن على مجريات القصيدة وبنائها عند بشار.
- أخفق بشار في التوفيق بين عالَمه المادي الواقعي وعالَمه الافتراضي الخيالي، فانطلق من نظرةٍ سلبية قاصرة منعته من الاندماج نفسياً والتعايش مجتمعياً والتكيف مع ما يدور من حوله في الحياة، وهذا ما لم نجده عند أبي تمَّام.
- كان هاجس الهُويَّة والشعور بالانتماء عند أب تمَّام حافزاً للمنافحة عن أمة العرب ورسالة الإسلام، فكانت الملاحم الشعرية القائمة على التاريخ وأحداثه تارة، وعلى الجدال والمناظرات والحِجاج تارةً أخرى.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

- قد يبدو أحياناً أنَّ بشار بن برد كان متلوناً في ولائه وهُويَّته، وفي اعتقادنا أنَّ هذا التلوُّن هو ظاهريٌّ فحسب، بما تقتضيه الضرورة ويتطلبه الموقف، أمَّا الأصل فهو يلتزم خطَّاً واحداً وهو الهُويَّة الفارسية المجوسية، وهذا ما نلحظه عنده على المستويين الفكري والواقعي.
- كان أبو تمَّام غالباً ما يزاوج بين الجانب السياسي والجانب الاجتماعي لتدعيم فكرة، أو تأصيل صورة، أو بيان حالة، أو تعزيز نظرية، ولهذه الأسباب نجد أنَّ الانتماء السياسي عادةً ما يمتزج بالهُويَّة الاجتماعية في شعره.
- أفصح بشار بن برد عن هُويَّته السياسية، وابتعاده الكبير عن الانتماء الاجتماعي، فكان غالباً ما يشعر بالغربة المادية والمعنوية والهوَّة الكبيرة بينه وبين أطياف المجتمع العبَّاسي.
- لقد شكَّل الماضي عند أبي تمَّام دعامةً مهمة من دعائم النص وأدَّى دوراً محوريَّاً في تعميق دور الأمة وإبرازه، دون أن يمحو ذوقه وشخصيته، فالنصُّ يحتفظ بخواصِّه العقلية والوجدانية والأسلوبية، فضلاً عن الجانب التاريخي الذي يزخر به النص، ويفعم به الماضي.
- انكبَّ بشار على تجارب الماضي وما لاقاه السابقون في عهود الهوى، وخلق أجواءً من المقايسة والمقارنة بين تجربته وتجارب مَن سبقه، عبر عواطف صادقة وروح يدميها الفراق وهتكت أسرارها الحسرة والكمد.
- تداخل الانتماء إلى الماضي عند الشاعرين بالهُويَّة المكانية، التي غذَّت النصَّ أصالةً وعنفواناً وهُويَّة، فضلاً عن ارتباطهما

بالمرأة، التي شكَّلت هاجساً درامياً حاملاً لعلامات نفسية فارقة، فنشأت علاقة تأثر وتأثير تبادلية بين الشاعر والماضي الزاخر بالمكان والمرأة.

- لقد تخطَّى المكانُ الحاجزَ الجغرافي وأصبح يحمل الآلام النفسية والخيالات وذكريات الماضي، وقد أدَّى الانتماء المكاني دوراً وظيفياً، إذ صار انعكاساً للارتباط اللاشعوري، ولإيحاءات عاطفية نفسية .
- صار الانتماء المكاني بؤرة مركزية ذات أبعاد دلالية معنوية وإيحائية عميقة، فضلاً عن الدلالات الرمزية التي ترسم في النفس مناخاً من الشعور بوجود الذات وامتداداتها عبر الزمن، فيخلق الشاعرُ عبرها عالَماً جديداً له ويصوغ بمقتضاها انبعاثات النفس وكوامنها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أصول النقد الأدبي: د.أحمد الشايب، ملتزم النشر والطبع: مكتبة النهضة المصرية, الفجَّالة- القاهرة, الطبعة العاشرة, ١٩٩٤م.

الأغاني: الأصفهاني: لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين (٣٥٦هـ), إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي, بيروت- لبنان, الطبعة الأولى، ١٩٩٤م-١٤١٥ه.

الانتماء في الشعر الجاهلي: د.فاروق أحمد اسليم: من منشورات اتحاد كُتَّاب العرب/١٩٩٨م، مكتبة الأسد الوطنية.

بشار بن برد حياته وشعره: د.هاشم مناع: دار الفكر العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

البيان والتبيين: الجاحظ: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ), تحقيق وشرح: عبد السلام

محمد هارون, الناشر: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة, مطبعة المدني- المؤسسة السعودية بمصر, الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(٩١١ه)، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ه - ٢٠٠٣م.

تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري: طه أحمد إبراهيم، لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة، ٢٠١٩م.

التعريفات: علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ), تحقيق ودراسة: محمد صدِّيق المنشاوي, دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير- القاهرة, (د.ت).

ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التبريزي, تحقيق: محمد عبده عزام, ذخائر العرب/٥, دار المعارف- القاهرة, مج١ ـ ط٥، مج٢+٣ ـ ط٤، مج٤ ط٣, (د.ت).

ديوان بشار بن برد : جمع أجزاءه الأربعة وشرحها وكمَّلها: محمد الطاهر ابن عاشور,وزارة الثقافة الجزائرية، سحب الجزء الأول عبر الطباعة الشعبية للجيش/٢٠٠٧، الجزء الثاني: علَّق عليها ووقف على طبعها: محمد رفعت فتح الله, محمد شوقي أمين, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة, ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م، الجزء الثالث: راجع مخطوطته ووقف على ضبطه وتصحيحه: محمد شوقي أمين، ١٣٧٦ه ـ ١٩٥٧، الجزء الرابع: راجعه وصححه: محمد شوقي أمين، ١٣٨٦ه ـ ١٩٦٦م.

ديوان لبيد بن ربيعة العامري بشرح الطوسي: قدَّم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. حنا نصر الحتّى، الناشر:

دار الكتاب العربي-بيروت، ط١، ١٤١٤ه - ١٩٩٣م.

الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول: د.حسين عطوان، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، (د.ت).

طبقات فحول الشعراء: ابن سلاَّم الجمحي (أبو عبد الله محمد بن سلاَّم بن عبد الله ت ٢٣١هـ), قراءة وشرح: محمود محمد شاكر, مطبعة المدني, القاهرة, (د.ت).

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٣٩٠-٤٥٦هـ), حققه وفصَّله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد, دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة, بيروت- لبنان, الطبعة الخامسة, ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

عيار الشعر: محمد أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م_١٤٢٦ه.

فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية: د.حبيب مؤنسي، من منشورات اتحاد الكُتّاب العرب- دمشق, ٢٠٠١م.

فوات الوفيات والذيل عليها: محمد بن شاكر الكتبي(٧٦٤ه)، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر_ بيروت، ١٩٧٣م.

القاموس المحيط: الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (٨١٧هـ), تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة, بيروت- لبنان, إشراف: محمد نعيم العرقسوسي, الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د.رفيق العجم، تحقيق: د.علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت

ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
لسان العرب: ابن منظور: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ), دار صادر- بيروت.
معجم البلدان: ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي,دار صادر- بيروت, ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
مفهوم العولمة وعلاقته بالهوية: إسماعيل الفقي: ٢٠٥.
الهُويَّة: اليكس ميكشيللي، ترجمة: د.علي وطفة، صادر عن دار النشر الفرنسية، الطبعة العربية الأولى ١٩٩٣م، تنفيذ: دار الوسيم للخدمات الطباعية ـ دمشق.
الوافي بالوفيات: الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ), تحقيق واعتناء: أحمد الأرناووط تركي مصطفى, دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع, ط١، بيروت- لبنان, ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلِّكان(٦٠٨ه)، حققه: د.إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٣٩٨ه - ١٩٧٨م.